تكلموا فى المهد

١

الطفل المعجزة

بقلم :

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف

الطبعة الثانية

دار المعارف

تلست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب أطفال وناشئة
سلسلة تكلموا فى المهد

تصميم الغلاف:
منال بدران

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

المير، محمد سيد أحمد.
الطفل المعجزة / بقلم: محمد سيد أحمد المير.
- ط 02 - القاهرة: دار المعارف، 2015.
32 ص، 19.5 سم (تكلموا فى المهد؛ 1)
تدمك 2 8276 02 977 978
1 - قصص القرآن.
2 - القصص الدينية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 229.5
رقم الإيداع: 25192/ 2015
رقم الكونجرس: 6 - 840057 - 01 - 2
رقم أمر التشغيل: 22/ 2015/ 7

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعد

فالقصةُ لونٌ منَ التعبير، نزلَ بهِ الوحىُ الإلهى، لتكونَ مناطَ قُدوةٍ وموقفَ تأملٍ، ودعوةَ إصلاحٍ..

والقصصُ فِى الوحى الإلهى هوَ القصصُ الحقُّ، ليسَ كخيَالِ الشعراء، أو نسْجِ الأدباء.

وَنحْنُ فى هَذِه السِّلْسلة نسوقُ نماذج من قصص الحديثِ النبوى الشريف أخبر بهَا سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهى تتعلقُ بأطفالٍ رُضَّعٍ، خرجوا عَنْ طَبيعةِ أقرانهِمْ وتكلَّموا فِى المهدِ، وَأنْطقهم الله الذى أنطقَ كلَّ شىءٍ.

فَمَنْ هؤلاَء الأَطفال؟

وَمَا حكمةُ هذَا النُّطق فِى المهدِ؟

وكيفَ تتطورُ حياةُ الإنسانِ مِنْ رحمِ أُمهِ إلى رحمِ قَبْره؟

وَمَتى يكتسبُ الإنسانُ نعمةَ البيانِ؟

هَذا مَا نحاولُ تقديمَهُ، عسىَ الله أن ينفعَ به أبناءنَا ويصلح بهِ شبابنَا.

والله ولى التوفيق.

تمهيد

الطفـلُ المعجزةُ هو الذي تجـاوزَ نَواميسَ مرحلتـه، وَخرجَ عنْ طبيعةِ أقْرانه، وَأتى بما لَمْ يأتِ به أندادُه وَنُظَراؤُه. وَلكي نفهمَ حَقيقةَ الإعجـاز، في الأطفـالِ الذينَ تكلَّموا في المهد، لابـدَّ أنْ ندرسَ طبائعَ الحياةِ الإنسَـانيَّة التي تعارفَ عليهَـا النَّاسُ، وَ ألفُوا سُننها وَقوانينهَا، وَحيثُ إنَّ الإنسانَ لهُ مرحَلةٌ في رحم أُمه، قَائمة عَـلى لقاء رجلٍ وَامرأة، مـنْ خلالِ عَلاقة الشـهوة وَالغريـزة التي يجبُ أنْ تُمارس باسـم الله وَعَـلى منهج الله، وَفي ظلالِ الأسرة الطَّيبة. فإذَا خلقَ الله طفلاً عَلى غير هذَا النمط، وَمنَ امرأة لَمْ يمسسْهَا بشرٌ، يكـونُ ذلكَ الطَّفـل مُعجزة إلهيَّة، وللإنسَـانِ مرحلة أُخْرى عَلى ظهـرِ هذه الأَرْض، تتعاقَبُ أطوارُ حَياته في هَذه المرحلة منْ طفولة إلى شباب إلى كُهولة وشيخوخَة، وَلكلِّ طوْرٍ مَا يُناسبهُ من الوعي وَالحركة والسَّعْي. فإذَا جاءَ طفلٌ وَتجاوزَ مرحلتَهُ، وأتَى بأمرٍ عجابٍ كانَ ذلكَ طفـلاً مُعجزة، فَتعالـوا بنا نَتعرفُ أولاً عَلى هـذه المراحل المألوفَة، وَتلكَ الأَطْوَار المعتَادة، لأنَّ الأشيَاء تتمايزُ بأضْدَادهَا..

أطوار الجنين

إنَّ الإعجازَ الخلْقى فى الإنسـانِ يفوقُ التَّصور، وَإنَّ جسمَ الإنسانِ عَجيبُ التَّكْوين، فكَمْ لدْيه مـنَ الأعضاءِ الداخليَّة وَالخارجيَّة، وَكَمْ فيه من الغدد والأغشية، وَكَمْ لهُ منَ الأجهزة الدَّقيقَة.

هَيَّا بنَا نقرأُ قولَ الله تَعَالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]

إنَّ بدايةَ الإنسـانِ خلاصَة منَ الأغذية، تولَّدت من الـتراب والماء مباشرةً كالنباتاتِ أوْ بطريق غير مُباشر كالأغذيـة الحيوانيَّة، فـإنَّ الحيوانَ يـأكلُ منْ نباتِ الأرض، فيرجعُ الأكلُ بأجمعه إلى الأرض وَترابهَا..

هـذَا الغذاءُ يأكلهُ الإنسـانُ فَيتحول بقُدرة اللـه تَعَالى إلَى منافعَ للجسْم، وَمنْ هَذه المنافع نُطفةُ الرجُلِ وَبويضَةُ المرأة.

---

(١) سورة المؤمنون من الآية ١٢ – ١٤.

وعندمـا تَلتَقى النُّطفة مع البويضـة تأخذُ طريقهَا إلى الرَّحم، ذلكَ القرارُ المكينُ الذى هيَّأهُ اللهُ عزَّ وجلَّ كَىْ تَعلق البويضةُ الملقَّحةُ بجدارِ الرَّحـم وَتَغُوصَ فيه، مُحَاطة بأغشـيَة صَمّاء تمنعُ نَفـاذ الماءِ والضوْء وَالحرارَة، وَ قد عبَّر القرآنُ المجيدُ عَنْ هذه الأغشيَة بقوله تعالى:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾[1]

ثُمَّ تنتقلُ هذه العلقَةُ إلى طوْرٍ آخرَ هُوَ المُضْغَةُ وَهِىَ فى الأصل قطعةُ لحم قدْرَ مَا يمضغهُ الإنسَانُ، وهَذهِ المُضْغَةُ منْهَـا مَاهُوَ كاملُ الخِلْقَة وَخَالٍ منَ العيوب، وَمنْهَا مَا هوَ عَلى عَكْس ذلـكَ، ويتبعُ هذَا التَّفاوُت تفـاوُت النَّاس فِى خَلْقهـم وَصُوَرهم، وتتـوالى عنايةُ اللـه بالجنين فتتحول المُضْغَـةُ إلى عظام، ثُمَّ تُكْسَى العظامُ باللَّحم، ثُمَّ يُنْشـئهُ اللهُ خلقاً آخرَ، وينفخُ الرُّوح فيه بعدَ أَرْبعة أَشْهر.. وَتتوالى عمليـةُ النُّموِّ فِى سرعَـة مُذهلة إلى أَنْ تحينَ لحظـةُ المخاضِ فيجد الجنينُ طريقَةُ مُيَسَّرًا بقدرة الله تعالى، فتنقبضُ أجهزةُ الأُمِّ وتنبسـط، وَيُصَاحبها إفْرازَاتٌ مُعينة، حتَّى يَسْتهل الجنينُ صارخاً عَلى ظهرِ هذه الأرضِ.

---

(١) سورة الزمر- الآية ٦

أليسَ هـذَا إبداعًا تَتَقَاصرُ دُونهُ كلُّ القُوى، وتقـفُ أمامَهُ كَافَّة العقولِ فِي دهشـةٍ وَعجـبٍ، ولا نملكُ إلاَّ أَنْ نقـولَ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1]

فالمجدُ وَالجلالُ والكمالُ والجمالُ للهِ الذِي أبدعَ صُنْعَ كُلِّ شيءٍ..

أطوار حياة الإنسان:

تبدأُ حياةُ الإنسانِ عَلى ظهرِ الأرضِ بمرحَلةِ الطُّفولةِ التِي تُوصفُ بوصفٍ عَامٍ هُوَ الضَّعْف:

- ضعفُ الوعيِ وَالإدْراك، فَلاَ يكادُ الطفلُ الرضيعُ يفهمُ مَا حولهُ أَوْ يعقلُ مَا يَسْمع.
- ضعفُ السمعِ والبصَرِ.
- ضعفُ الحركةِ والسَّعيِ.

لكـنَّ اللهَ جلَّ جلَالهُ، غرسَ فِي الطفولةِ آلاتِ العلمِ مِنَ السمعِ والبصرِ والعقلِ، وَهيَّأَ لها أسبَاب نمائهَا وتطورهَا.

فتنمـو مَـدَارِكُ الأَطفالِ وَتتَّسـع تَصوُّراتهـم، ويمتدُّ بَصَرُهُم وسَـمْعُهُم إلى آفاقٍ أبعدَ ومسَـافاتٍ أَطْول، وتشـتدُّ سـواعدُهم وتقـوى أرجلُهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1]

وَيَستمرُّ نماءُ الطفلِ حتىَّ يصلَ إلى مرحلةِ الشبابِ التي تمتازُ بالنَّضارةِ وَ القوةِ وَنضجِ العقْلِ، وتأتي قمةُ هذه المرحَلة في سنِّ الأربعينَ، وَهِيَ كَمَالُ العقلِ والرُّشدِ، وَالاسْتواءِ التَّام. وقد ربط الله تعالى بلوغَ الأَشُدِ والوُصُول إلى كمالِ القُوى الإنسانيَّةِ بسنِّ الأربعينَ فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[2]

ويعقبُ ذلكَ مَرْحلة الكُهولةِ وَالشيخوخَةِ وَهِيَ تَنْتهي عَودًا إلى بدءٍ، منَ القوةِ إلى الضعفِ، ومنَ الرشدِ إلى نعاسِ العقلِ، ويحتاجُ الإنسانُ في كبرِه إلى مَا يحتاجُهُ في صِغَرِه، يحتاجُ إلى مَنْ يُطعمه ويسقيه ويُميطُ عنهُ الأذى ويأخذُ بيديْهِ عَلى الطَّريقِ، وصدق الله حيثُ يقولُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[3] والمرادُ بالضعفِ الأول الطفُولة،

(١) سورة النحل – الآية ٧٨.
(٢) سورة الأحقاف – الآية ١٥.
(٣) سورة الروم – الآية ٥٤.

والمرادُ بالقوةِ الشَّباب وبلُوغ الأَشُد، والمرادُ بالضعف الثَّانِي والأخير هُوَ الكِبَر، وَيأتي سؤالٌ ينبغي التَّفطُّنُ لَهُ وهوَ، هَلْ يَضْمَنُ كُلُّ امْرئٍ لنفسه أَنْ يمرَّ بهذه المراحل كلِّهَا؟!

إنَّ الجـوابَ الوحيدَ هـوَ أنَّ الله وحدهُ هوَ الذي يمنحُ الإنسـانَ أجلَهُ الذي لَنْ يتقـدمَ أو يتأخَّر، وَقَدْ تأتي لحظةُ الموتِ للطفل أَوِ للشَّـاب أَوِ للكهلِ أَوِ للشـيخ الكبير، وَتقفُ الإنسانيَّةُ جمعَـاء حَـيْرى أمامَ هذه اللحظـة الفاصلـة التي تنقُلُ الإنسـانَ من دارِ الدنيا إلى دارِ الآخرة، كَيْ يُحَاسَـب على عمله إنْ خيراً فَخير وَإنْ شراً فَشر، قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1]

فإذَا وَصَلت روحُ الإنسانِ في لحظاته الأَخيرة إلى الحلقُوم، وهُوَ مَجْرى الطعام منَ الفم، وأوشكَ الإنسانُ عَلى الفراق، وحولهُ أَهْله أجمعونَ يشاهدونَ هذه اللَّحظةَ وَلاَ يستطيعونَ ردَّهَا، بلْ لَوِ اجتمعَ الإنسُ والجنُّ لَنْ يفعلُوا شيئًا وَيَبْقى المصيرُ الإنسانيُّ بيدِ الله وحدهُ، فهوَ سبحانهُ المُحْيي المُميت.

(١) سورة الواقعة الآية ٨٣: ٨٧.

البيان الإنسانى

- تمهيد.
- نعمة البيان.
- أهمية الكلمة.
- أدب الكلمة.

تمهيد

الطفلُ المعْجزةُ الذى نتحدثُ عنهُ ونقدمهُ لأبنائنَا وَبناتنَا هُوَ طفلٌ تكلَّمَ فِى المهْدِ.

وَلكَىْ نفهمَ هذه المعجزةَ البيانيَّةَ نُقدِّمُ كلمةً عَنْ نعمةِ الله تعالىَ فِى مَنْحه القُدرة على البيانِ لبنى الإنسَان، بلغاتٍ شتىَّ.

وَإذَا كانَ الطفـلُ المعجـزةُ تكلَّمَ فِى المهـدِ بالحقِّ وَالصِّـدْقِ والأَمانة، فمنَ الخـيرِ أَنْ نُبَيِّنَ أدبَ الكلمة وأهميتهَا، عَـسَى أَنْ يَنْتبهَ شـبابُنَا إلىَ مَا يصدرُ عنهُ مِـنْ قولٍ وَمَا ينطـقُ بهِ منْ كلمة .. فَتلكَ إشَـاراتٌ وَعلاَمَاتٌ مُضيئَة، يُطلقهَـا الأطفالُ الذينَ تكلَّموا فِى المهـدِ مُنْذُ آلاف السـنينَ، عَلَيْنـا أنْ نلتقطهَا بحرصٍ شديدٍ وَأَدبٍ جَمٍّ.

١ ـ نعمة البيان

منْ أَجَلِّ نعم الله تعالى عَلى الإنسـانِ نعمَة البيانِ والنُّطق، وَهىَ نعمةٌ بهَا يتمايزُ الإنسانُ عَنْ باقى الكائنات الحيَّة .. قال الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾[1].

وَفِى أسـلوب مُفَارقـةٍ وَمقارنَة بين بدايةِ الإنسـانِ التكوينِّية، وما هو عليه الآن من عقل وفكر ومنطق، يقـول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[2]

فهناكَ فرقٌ كبيرٌ بينَ النطفة التى بدأ منهَا الإنسانُ، وبينَ ما صَـارَ عليه بعدَ الميلادِ وَأطوارِ النشـأة حتَّى صارَ إنسانًا يجادلُ ويحاورُ ويتعلمُ ويفعلُ الأعَاجيبَ، فيطـيرُ فِى الهـواءِ، ويغـوصُ فِى الماء ويعـبرُ القارَّات والمحيطَـاتِ بقـدرة أودعهَا الله فيـه ويسرهَا له .. وامتـدادًا لنعمةِ البيان تأتى نعمـةُ اللغاتِ واختلافِ الألسُـن، فهىَ مظهرٌ منْ مظاهـرِ الإبدَاع الإلهى فِى دنيَا الناسِ، وقدِ امتنَّ الله بهَا علينَا فقالَ سبحانه:

---

(١) سورة الرحمن الآية ١ : ٤.

(٢) سورة يس الآية ٧٧.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (١)

ومنح الله الإنسانَ وسائلَ المعرفة وآلات الفكر فقالَ جلَّ شأنه:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

وقد حرصَ الإسلامُ على أنْ تُستخدمَ هذه الوسائل استخدامًا مفيدًا نافعًا، وحَمَّلَ الإنسانَ المسئوليةَ الشرعيةَ عنها وَسيسأَلُ أمامَ الله عزَّ وجلَّ .. قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٣)

وأخبرَ القرآنُ المجيدُ أنَّ كلَّ مَا يصدُر مِنْ أقوال الإنسان تسجلُ عليه تسجيلاً دقيقًا وَيُحصَى إحصاءً كاملاً فقال:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٤)

وإذا كانَ الدينُ اعتقادًا رَاسخًا ويقينًا يستقرُّ فِى قلبِ الإنسانِ وعقله فقدْ جعلَ اللهُ تعالى النطقَ بالشهادتيْن عنواناً عَلى هذا

(١) سورة الروم الآية ٢٢.
(٢) سورة النحل الآية ٧٨.
(٣) سورة الإسراء الآية ٣٦.
(٤) سورة قّ الآية ١٨.

الدين وتلكَ العَقيدة، قال رسـول الله ﷺ: «بُنِى الإسـلامُ عَلى خمسٍ، شَـهَادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسـولُ الله، وَإقَام الصَّلاة وَإيتَاء الـزكاة وَصوم رمضَـان وَحج البيت» وذلـكَ لأنَّ التعاملَ بـينَ الناسِ إنمَا يكونُ بناءً عَلى مَا ظهرَ منهمْ وَلاَ نشقُّ عنْ قلُوبِ النَّاس.

٢ ـ أهمية الكلمة

الكلمـةُ قدْ تكـونُ طَيبة، تقومُ عَـلى أمرٍ بمعروفٍ أَوْنهى عَنْ منكر أَوْ ما ينفعُ الناسَ فِى دينهمْ وَدنياهُم، وقد تكونُ كلمةً خبيثةً تقطعُ الأَواصرَ وتشـيعُ الفتنةَ وتحيي نارَ العدَاوةِ والبغْضَاء.

وقـد ضربَ الله تعالىَ مثلاً لهاتيْنِ الكلمتيْن، فشـبَّهَ الكلمـةَ الطيبـةَ بشـجرةٍ طيبةٍ تُعمق جـذورًا وتمتد سيقانًا، ويظَلُّ النفعُ بهَا دائمًا مستمراً .. وشبهَ الكلمةَ الخبيثةَ بشجرةٍ قطعتْ منَ الأرضِ فلا يبقَى لهَا امتدَاد، ولاينتفـعُ بهَا أحدٌ وتصيرُ حطاماً تـذروهُ الرياح، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ [1]

وَفِي أهميـة الكلمة ومَـا قد يترتبُ عَلَيْها منْ سـؤْدَد أو ضيَاع، ومنْ سـعادةٍ أو شـقَاء يقول الرسـول ﷺ: « إنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكَلمَةِ منْ رضوَان الله تعالى لا يلْقى لهَا بالًا يرفعُهُ اللهُ بهَا درجَاتٍ، وَإنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكَلمةِ منْ سـخطِ اللهِ لا يلْقى لهَا بالًا يَهْوِى بهَا فى جَهنم» (رواه البخارى).

ومعنى: « لاَ يلقى لهَا بالا» لاَ يستحضرُ لهَا قلبهُ ولاَ يلتفتُ إلى عَاقبتهَا، والمقصودُ أنَّ الإنسـانَ قدْ يتكلَم كلمةَ حَـقٍّ يظُنُّهَا صَغـيرة، ولكنهَا عندَ اللـه جَليلة، فيحصـلُ له بسـببهَا رضوانُ اللهِ الأكْـبر، وقد يتكلمُ بسوءٍ ويستصغرهُ وهو عندَ الله ذنبٌ كبيرٌ.. فالإنسانُ مَخْبوء تحتَ لسـانه، وعليـه أنْ يحاذرَ فِي نُطقه، ولا يكونُ ثرثارًا كثيرَ الكلام، فإنَّ الثرثرةَ لا تخلُو منْ مَأْثم وذنـبٍ نتيجـةَ التهويلِ أو التزيد أو التَّصنع او غـيرِ ذَلكَ مِنْ آفاتِ اللسـانِ، وقدْ نصحَ الرسولُ ﷺ أحدَ أصحابه وهو مُعَاذ بن جبل بما يمنحُ الأعمالَ الصالحةَ كمالهَا وصفاءهَا. فقال: «ألاَ أخبرك بملاك ذلك

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٤-٢٦.

كُله؟» وكَان مُعاذٌ قدْ سألَ الرسولَ الكريمَ ﷺ عنْ عملٍ يدخلهُ الجنةُ ويباعدهُ عنِ النارِ فأوصَاه بأركَانِ الإسلام وأبوابِ الخيرِ والجهادِ ثُمَّ قالَ له: «كُفَّ عليكَ هذَا، وأخَذَ بلسَانه»، فقال مُعَاذ: وإنَا لمؤاخذونَ بَما نتكلمُ بِهِ. فقال: «ثكلتكَ أُمُّكَ وهلْ يكبُّ النَّاس فِي النارِ عَلى وُجُوهِمْ أَو قالَ عَلى مَنَا خرهمْ إلا حَصَائد ألْسِنَتِهِمْ» (رواه الترمذى وقال: حسن صحيح).

وقدْ ذكرَ الله منْ صفَاتِ المؤمنينَ المفلحينَ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1] واللَّغو هو الباطلُ ومالا فائدةَ منه.

إنَّ شعارَ المسلمِ دائما هوَ كلمةُ الخيرِ أو الصَّمت تحقيقًا لقولِ الرسولِ ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقلْ خيراً أو ليصْمت» (متفق عليه).

٣ـ أدب الكلمة

الكلمةُ فِي الإسلامِ لهَا أدبٌ فِي مَضْمونهَا وكيفية أدائهَا وإلقائهَا.

فالإطارُ العام للكلمةِ هوَ المعْروف وَالبر، ولهذَا قالَ رسولُ الله ﷺ:

(١) سورة المؤمنون الآية ٣.

« ليسَ المؤمنُ بالطَّعان ولاَ اللَّعان وَلَا الفَاحش وَلَا البذيء» (رواه الترمذى وقال: حسن صحيح)

ويحرصُ المسلمُ فِى حديثه عَلى توضيح مُراده، فَيعيد الكلمةَ مرةً أو مرتينْ أَوْ ثلاثاً لينبهَ المخاطبَ أو ليسعدَ هُوَ بإعادة الحديث أو ليؤكدهُ. وكانَ رسول الله ﷺ: «إذا تكلَّمَ بالكلمة أعادهَا ثلاثا حتَّى تُفهمَ عنه» (رواه البخارى)

والمسلمُ ليسَ مُرتفع الصوت مُزعجًا، ولا يتهامسُ بالكلمة ويتخَافت بها، وإنماَ يتوسطُ فِى إلقائه، ولهذَا قالَ الله تعالَى حكايةَ عنْ لقمانَ لابنه وهو يعظهُ: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[1]

وشأنُ المسلم هكذَا فِى كافة عباداته ومعاملاته قالَ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[2]

وهنَا ندركُ مدَى الجرم الذى يرتكبهُ الذينَ يستخدمُونَ مُكبرات الصوتِ فِى الأفراحِ والمآتم أو آلاتِ التنبيه فِى السياراتِ أَوْ أصواتِ

---

(١) سورة لقمان الآية ١٩.

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠.

المذياعِ والتلفزيونِ بصورةٍ بشعَة بلَا مراعاةٍ للقيمِ والأخلاقِ وحقوقِ الجوارِ وَحَق الناسِ فِي الهدُوءِ والرَّاحة.

والمسلمُ لا يتكلفُ الكلمةَ أو العبارةَ الغامضَة، وإنمَا ينطلقُ عَلى سَجيتِه اليسيرةِ السَّهْلة، وَفِي الوقتِ نفسه لا يكونُ ثرثارًا يخوضُ فِي كلِّ شيء ويتكلَّم بكُلِّ مَا يَسْمعُ، لا يسكنُ له لسانٌ، ولا يسكتُ لهُ صوتٌ فإنَّ الثرثرةَ لا تخلُو منْ مَأْثم نتيجةَ التهويلِ أَوِ التزيد أو التصنع، لهذَا قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من أحبكُم إلىَّ وأقربكُم منِّى مجْلسًا يومَ القيامةِ أَحَاسنَكُم أَخلاقًا، وإنَّ أبغضَكُمْ إلىَّ وأبعدكُم منِّى يوم القيَامةِ الثرثارونَ والمتشدقُونَ والمتَفَيْهِقُونَ» قالوا: يا رسول الله قد علمنَا الثرثارينَ والمتشَدِّقينَ فمَا المتفيهقُون؟ قال: «المتكبرون» (رواه الترمذى وقال حديث حسن).

وقد توعَّدَ الرسولُ ﷺ الثرثارينَ بقسْوَة القلبِ، تلكَ القسوةُ التى تسيْطرُ عَلىَ القلبِ فلا يعظُ ولا يُوعظ، ولا يصدرُ منهُ خيرٌ ولا يَصلُ إليه خَيرْ..

ولهذَا يحرصُ المسلمُ عَلى أنْ يكونَ لسانهُ رطبًا بذِكْر الله، قالَ ﷺ: «لَا تُكثروا الكلَام بغيرِ ذكرِ الله، فإنَّ كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ الله قسوةٌ

للقلب، وإنَّ أبعدَ الناسِ عَنِ اللهِ القلبُ القاسِى» (رواه الترمذى)

ألا ليتَ الَّذينَ يقضُونَ أوقاتَهُمْ فِى اللهوِ واللَّغو، وتنطلقُ ألسنتُهُم الحدَّاد بكلِّ منكرٍ وفاحشَةٍ، يدركونَ مدَى الجنايةِ عَلَى أنفسهمْ بهذَا الكلامِ الخبيثِ..

وإذَا كانَ المسلمُ يجلسُ أو يسيرُ معَ شخصيْنِ آخريْنِ فَلَا يجوزُ شرعًا أنْ يخصَّ بالحديثِ واحدًا منهمَا همْسًا ويدعَ الآخرَ فإنَّ ذلكَ يحزنُ الشخصَ الثالثَ ولا يرضَى بذلكَ مسلمٌ.. قال ﷺ: «إذَا كُنتمْ ثَلَاثةٌ فلا يتناجَى اثنانِ دونَ الثالثِ حتَّى تختلطُوا بالناسِ مِنْ أجلِ أنَّ ذلكَ يَحْزُنُه» (متفق عليه)

الكلام فى المهد

- الروايات الصحيحة..
- الروايات المرفوضة ..
- قدرة الله العلىّ الأعلى..

الروايات الصحيحة

إنَّ الطبيعة المعروفةَ هِيَ أنَّ الأطفالَ لا يتكلمونَ إلاَّ بعدَ مرحلة زَمنية قـدْ تطولُ وَقَدْ تَقْصُرُ، وَفِي البداية ينطقونَ بحروفٍ مُتقطعة أَوْ كلماتٍ مُتَفرقة، وَمَعَ التعوُّدِ والاسْتمرار يبدَأونَ النطقَ بكلماتٍ مُرَكَّبة.

لَكنْ هذه الطبيعـة قدْ تختلفُ - بقدرة الله تعالى - فقدْ وُجدَ أطفالٌ تكلَّموا فِي المهد .. أَيْ فِي سَريرِه الصَّغير قبلَ أَنْ يتحركَ ويَحْبُو..

وَقَـدْ أخبرنَا بذلكَ سـيدُنا محمدٌ ﷺ الـذِي أَوْحى إليه ربُّـهُ بالقصص الحقِّ، وَأخبرَ عـنِ الماضِ والحاضر وَالمسـتقبلِ خَبَرَ الصِّدقِ واليقينِ الـذِي لاَ يَأْتيه الباطلُ مِنْ بـينِ يديْه وَلاَ مِـنْ خلفه.. فهِيَ ليسـتْ حكايَات أَوْ أَسـاطيرَ أَوْ قصصاً خُرَافيًا، وإنَّما هِيَ حَقائق وَقعَتْ فِي دُنيَا الناس، وقدمهَا الرسـولُ الكريـمُ لنأخذَ العِبْرَةَ ونصححَ التفكيرَ ولتستقيمَ الحيَاةُ..

وباسـتعراض الأَحَاديث التِي وردتْ فِي ذلكَ، نجدُ أَنَّ الصادقَ الأَمينَ سـيدنَا محمدًا ﷺ قـدْ أخبرَ - كـما فِي صَحيح الإمام البخـارِي - أنهُ لمْ يتكلَّمْ فِي المهدِ إلاَّ ثلاثةٌ:

١ - عيسى ابن مريم عليْهِ السلام.

٢ - طفل العابد جُرَيج.

٣ - الصبيُّ الدَّاعي لنفْسه.

وَهناكَ روايةٌ أخرجَهَا الإمامُ مُسلم في صحيحه، تضيفُ طفلاً رابعًا هو:

٤ - طفلُ صَاحبة الأُخدود.

وهنـاكَ روايةٌ أخرجهَـا الإمامُ أحمد وابـنُ حِبَّان والحاكم تضيفُ طفلاً خامسًا هو:

٥ - رَضيعُ مَاشْطة بنت فرعون.

هذه هيَ الرواياتُ الصَّحيحةُ المقبولَةُ.

كلُّ طفلٍ مِنْ هؤلاَء الخَمْسة، لهُ قصةٌ تعمقُ الإيمانَ باللـه عزَّ وجلَّ، وتؤصِّلُ قيمَ الحـقِّ وَ الخير، وتنتصرُ للمظلوم وَتدافعُ عنِ البرئ.. لقدْ تكلمَ هَؤُلاء الأطفالُ الرُّضـع بقدرةِ اللـه الذي أعطَـى كلَّ شيءٍ خلقهُ ثُمَّ هَـدَى، وَ الـذي بيَده مَلكـوت السَّـمواتِ والأَرْض، ويعلمُ السرَّ وأخْفَى.

لقـدْ كانَ كلامُهم مُعجزة لأَنهم تكلَّمـوا في المهد، وَأَجْرى الله عَلى لِسَـانهم النطقَ منْ غيرِ تعقُّلٍ منْهم إنقـاذًا للموقف الصَّعب الذي وقع فيهِ أَهلُهم، وَمِنْ غير اسْـتمرارٍ في الكلام، فهمْ لمْ يظلُّوا مُتكلمينَ

بعـدَ هذَا الموقـفِ المعجزِ، وإنَّمـا أعادهُمُ اللهُ سـبحَانهُ وتعَالَى إِلَى سِيرتهم الأُولَى..

روايات مرفوضة

هناكَ رواياتٌ تضيفُ شاهدَ يوسفَ عليه السلام المشار إليه في قوله تعالى «وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا»، وَقيلَ إنهُ كانَ ابن خال زليخا امْرَأة العزيز صبيًّا تكلَّم في المهْد.

فهذه الروايةُ ضعيفةُ الإسْنَاد، ثمَّ إنَّ جوَّ القصة يرفضُهَا، لأنهُ لو كانَ طفلاً لكانَ مجرَّد قوله إنهَا كاذبَة كافيًا وبرهانًا قاطعًا لبراءَة يوسفَ عَليه السَّلام، لأنَّ نطقَ الطفلِ من المعجزات.. ولما قالَ القرآن الكريمُ «منْ أهلهَا» ليبعدَ التهمةَ عَنِ الشَّاهد.

ثُمَّ إنَّ الشَّاهدَ كانَ حكيمًا عَاقلًا لَمْ يحكُم بالبراءَة بدايةً، لكنهُ علَّق الأمرَ عَلَى التحقيق منْ رؤية القميص المقْطوع فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]

وخلاصةُ هذَا الموقف أنَّ يوسفَ عليه السَّلام كانَ خادمًا في بيت عَزيز مِصْرَ، وَقَدْ أعطاهُ الله شطرَ الحُسْن والجمَال، فَفُتنتْ بهِ امرأةُ

(١) سورة يوسف الآية ٢٦ -٢٧.

العَزِيز، فهيَّأتْ نفسهَا وَغلَّقتِ الأَبوابَ وَدَعتهُ إِلَى مُمَارسة الفاحشة.

فما كانَ من يوسفَ الطّاهر، إلاّ أَنْ واجهَ المرأةَ فِي عنفوَانِ كبْريائهَا ورفضهَا بشدة وإصرار. وظلَّ أمينًا عَلى نفسه وعَلَى عَزيز مصر، فقالَ: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] ثُمَّ فرّ يوسفُ عليه السلام من المرأة التى حَاصرتهُ فِي بَيْتهَا وَاتجه نحوَ البابِ ليخرجَ منهُ فأسرعَتْ وَرَاءهُ وَجَذبتهُ مِنْ رِدَائه مِنْ خَلف ظهْره، وهنَا دَخل صاحبُ المنزلِ عَزيز مصر وشاهدَ المرأةَ ويوسف خلفَ الباب.

ومَا كانَ منَ المرأة الفَاجَرة إلاَّ أَنْ تظاهرتْ بالبكاء، وَادَّعت العِفَّةَ واتهمتْ يوسفَ بالخيَانة.

وَنفَى يوسفُ التهمةَ عنْ نفسه: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾[2] وَكانَ بصحبَة عَزيز مصر رجلٌ منْ أَهل زوجته فبدأ يُبدى رَأيه ويبحثُ عَنِ البينة فأشارَ إلى ضرورَة التأكُّد منْ تمزيقِ الثَّوب، هل كانَ التمزيقُ منَ الأمام فيكون يوسفُ هو الذى تهجَّمَ عَلَى المرأة، فَدافعت عَنْ نفسهَا وَمزَّقت ثوبَ يوسفَ مِنْ أَمَامه.

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٣.

(٢) سورة يوسف الآية ٢٦

وَإِذَا كانَ التمزيقَ من الخلفِ فتكونَ امرأةَ العزيزِ هِيَ التِي أسرعتْ خلفَ يوسفَ لتجرهُ إلى الداخلِ فمزَّقتْ الثوبَ منَ الخلفِ.

فلمَّا تبينَ أَنَّ القميصَ مُزَّقَ منَ الخلفِ، ثبتتْ براءةُ يُوسف عليه السلام، وكانت امرأةُ العزيزِ هِيَ المُدَانَة.

فهذاَ الشاهدُ لاَ يُعقَلُ أنْ يكونَ طفلاً ولذَا فهِيَ روَايةٌ ضَعيفةٌ يرفضهَا العقلُ وأيضًا ينقصهَا الإسنَاد.

قدرة الله العلى الأعلى

الله تعالى هو مَانحُ الوجُود للكونِ كُلِّه وَ الكائنَات بأجمعهَا، وَقدْ رتبَ الأسبابَ والمسبَّبات، وجعلَ كلَّ شيء بنظام بَديع مُحْكم، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾ (١)

فهذه السمواتُ العلاَ، ومَا تحويه مِنْ كواكبَ وَنُجوم، تسيرُ بدقَّةٍ مُتناهيةٍ وسنَّةٍ ثابتةٍ بلاَ تنافرٍ أَوْ نقْصٍ أَوْ خللٍ.

وكُلما تأمّل الإنسانُ فِي هذِه السَّموات المُمْتدة الوَاسعة المرفوعَة بلاَ عَمَدٍ، ازدادَ يقينًا بِعظَمة الله فِي الخلْقِ.

ومهمَا أجهدَ العلماءُ أنفسَهُم فِي تعقُّب هذَا الوجُود الشَّامخ، لنْ يجدُوا عيبًا أَوْ خللاً لأنَّ ذلكَ مِنْ صُنْع الله الذى أتقنَ كلَّ شيء، ولاَ يمكنُ بحالٍ منَ الأَحوالِ أَنْ يوجدَ مَنْ يستطيعُ السيطرةَ عَلى هَذَا الكونِ إلاَّ خَالقُ الكَون وَحده.

---

(١) سورة الملك الآية ٣: ٤.

قالَ الله تعـالىَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1]

إنهَا قدرةُ الله وَحدهُ التى تُهيْمنُ عَلى الكائنات كلُّهَا صَغيرهَا وَكبيرهَا.

فهذه النواميسُ والقوانينُ التى تحكمُ الكونَ خَلقها الله تَعَالَى وسيْطرَ عليهَـا، وهىَ مَرْهونـةٌ بإرَادته، فـإذَا أرادَ الله إيقافهَا أَوْ تغييرهَـا، فَلاَ مُعقِّبَ لحكْمـه.. وَقَدْ خَرقَ اللهُ هذه النَّوَاميسَ وسخَّرهَا مُعْجزةً للأنبياء وكرامةً للأولياء.

فانقـلابُ العصَا حَيَّة عَلى يد موسىَ عَليه السَّـلام، معجزةً خَارقـةً للنَّوَاميس، لأنَّ العصَا جمادٌ، والجمادُ لاَ يتحركُ وَ لاَ يبتلعُ الأشـياء، فإذَا تحوَّلت العصَا إلَى ثعبَـانٍ كبير، فقد انقلبتْ حَقيقـةُ الجماد إلَى حَقيقة الحيوان تتحركُ .. وذلكَ بإرادة الله عزَّ وجَل.

وَ إبـراءُ الأعْمى والأَبرص منْ غـير دواء أَوْ مَشْرط وَإنَّمَا بمجرد الدعَاء منْ عيَسى عليه السلام، هُوَ مُعجزة أجْراهَا الله تعالى عَلى يديْه تَأييدًا لهُ فى دَعْوى الرسالة والنُّبوة.

وَالإسراء برسول الله سـيدنَا محمد صَلَّى الله عليه وسلم منْ مَكَّةَ إلَى بيـتِ المقْـدس، ثم العُرُوج إلَى السـموات العُلا، ثُمَّ إلَى سـدْرة

(١) سورة فاطر الآية ٤١.

المنْتَهَى، وعندهَا جنةُ المأْوَى، ثُمَّ إلى حيثُ شَاءَ العلىُّ الأَعْلى، ثُمَّ العودةُ إلى مكةَ فى جزءٍ يسيرٍ مِنَ الليل، هوَ منَ المعجزاتِ القاهراتِ التى تبدَّلَتْ فيهَا النَّواميسُ.

قالى تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]

وَيُشير إلى المعراج قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[2]

والمعنىَ لقد رأى سيدُنا محمدٌ ﷺ «ملكَ الوحْى جبريلَ الأمينُ فى صُورتِه الملائكيَّةِ لَهُ ستمائة جناحٍ، عندَ مكانٍ عُلوى رُوحى يسمى «سدرة المنتهى»، أى المكان الذى لا يتجاوزهُ مَنْ يصعدُ من أسفل ولاَ مَنْ ينزلُ مِنْ أعْلى.. ولم يتجاوَزْ هذَا المكانَ العُلوى إلاَّ سيدُنا محمدٌ ﷺ، حيثُ أمرهُ اللهُ بالدخُولِ فى منطقةٍ نَوْرَانيَّةٍ، وكانت المفاجأةُ العلْويةُ

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

(٢) سورة النجم من الآية ١٣ : ١٨.

مَعَ الله عزَّ وجلَّ، وفُرِضَت الصلواتُ الخمسُ عَلَى الأمة الإسلاميَّة.

وَانطلاقًا مـنْ هَذه الحقيقة وَهى أَنَّ النَّوَاميـسَ الكونيةَ مَرْهُونة بأمرِ الله وإذْنه، فَإنَّ الله تعالىَ هُوَ الذى مَنَحَ الإنسـانَ القدرةَ عَلى الكلامِ وعلَّمهُ البيانَ فِى سنٍّ مُعينة، وتلكَ هِىَ السُّنَّة العامَّة.

لكـنَّ الله عزَ وجلَّ، قَدْ يمنح هـذه القدرةَ قبلَ هذه السُّـن، كالأطفالِ الذيـنَ تكلمُوا فِى المهـد، وقَدْ يمنعهَا بعدَ هذه السن كالصُّم وَالبُكْم، يفعل اللهُ ما يشاءُ وَلَهُ الحكمةُ البَالغَة.

وَسَيَأتى الإنسانُ يومَ القيامةِ ويشهدُ عليه مَالَمْ يكنْ ينطقُ فِى الدنيَا لأَنَّ اللهَ أَوْحى لَهَا:

١ - مكانُ العملِ يُخبرُ بمَا وَقع فيه منَ الخيرُ والشَّر قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾[1]

وفى حديثٍ رواهُ الترمذى بسنده عَنْ أبى هُريرة رضى الله عنه قالَ: قرأ رسول ﷺ هَذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: أتدرُونَ مَا أَخبارهَا؟

قالوُا: اللهُ ورسوله أعلم.

---

(١) سورة الزلزلة من الآية ٤: ٥.

قالَ: فإنَّ أخبارهَا أَنْ تشهدَ الأرضُ عَلى كلِّ عبدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عملَ عَلى ظهرهَا، أَنْ تقول: عملَ كذَا وكذَا يوم كذَا وكذَا فَهذه أخبارُهَا.

٢ - زمَان العملِ مِنْ ليل أو نهارٍ: فإنَّ الله تعالىَ يُنْطقه بما عملَ الإنسانُ فيهِ مِنْ طَيبِّ القَوْلِ والفعْلِ، أَوْ خبيثِ السلوكِ وَ الأقوالِ .. وَقدْ أخبرَ النبى ﷺ أنَّ كلَّ يوم يُنَادِى وَيقولُ: أنَا يومٌ جديدٌ وَعَلى عملكَ شَهيد فَاغتنمنِى فإنِّى لَا أعودُ إلى يومِ القيَامة.

٣ - اللسَانُ واليُد والرجْلُ: تأتِى هذِه الجوارحُ يوم القيامةِ شاهدة عَلى الأعمالِ التِى وَقعتْ بها وَالتِى أرادهَا الإنسانُ ونفَّذَهَا، قالى تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]

٤ - السمعُ والبصرُ والجلودُ مِنَ الشهودِ الذينَ لا يكذبونَ.. ينطقُ الله هذه الأعضاء التِى لَمْ ينتفعْ بهَا المرءُ فِى حَيَاته، واستخدمهَا استخدامًا يتنافَى معَ القيم والأخلاقِ قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة النور الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت الآية ٢٠.

وحينَ يلومُ العاصي والكافرُ أعضاءهُ وجوارحَهُ التي تشهدُ عليهِ يكونُ الردُّ الحاسمُ بأنَّ ذلكَ فعْلُ الله، وتلكَ قدرتهُ التي لا يتعاظمهَا شيء.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

وَبذلكَ تتجلى قدرةُ الله عزَّ وجلَّ وَتُنَادي الفطْرةُ السَّويَّة:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٢)

(١) سورة فصلت الآية ٢١.

(٢) سورة الحج الآية ٦٢.